

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه لأن طبايعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون ولهذا قال تعالى : { ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم } الآية قال ابن جرير : حدثني المثنى حدثني إسحاق حدثنا أبو زهير عن إسماعيل عن أبي إسحاق السبيعي قال : لما نزلت { ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم } الآية قال رجل : لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : [إن من أمتي لرجالا للإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي] ورواه ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن منير حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن بإسناده عن الأعمش قال : لما نزلت { ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم } الآية قال أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : لو فعل ربنا لفعلنا فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : [للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي] وقال السدي : افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود فقال اليهودي : وا [لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا فقال ثابت : وا [لو كتب علينا { أن يقتلوا أنفسهم } لفعلنا فأنزل الله هذه الآية ورواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن غيلان حدثنا بشر بن السري حدثنا مصعب بن ثابت عن عمه عامر بن عبد الله بن الزبير قال : لما نزلت { ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم } أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم } قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم] وحدثنا أبي حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية { ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم } الآية أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال : [لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل] يعني ابن رواحة ولهذا قال تعالى : { ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به } أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه { لكان خيرا لهم } أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي { وأشد تثبيتا } قال السدي : أي وأشد تصديقا { وإذا لاآتيناهم من لدنا } أي من عندنا { أجرا عظيما } يعني الجنة { ولهديناهم صراطا مستقيما } أي في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : { ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا } أي من عمل بما أمره الله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله فإن الله يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون ثم الشهداء والصالحون الذين صلت سرائرهم وعلاانيتهم

ثم أثنى عليهم تعالى فقال : { وحسن أولئك رفيقا } وقال البخاري : حدثنا محمد بن عبد
الله بن حوشب حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عروة عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول : [ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة] وكان في شكواه التي
قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعتة يقول : [مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين] فعلمت أنه خير وكذا رواه مسلم من حديث شعبة عن سعد بن
إبراهيم به وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر [اللهم الرفيق الأعلى]
ثلاثا ثم قضى عليه أفضل الصلاة والتسليم .
(ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة) .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن
جبير قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم : [يا فلان ما لي أراك محزونا ؟] فقال : يا نبي الله شيء فكرت فيه
فقال : ما هو ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدا ترفع مع النبيين
فلا نصل إليك فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فأتاه جبريل بهذه الآية { ومن يطع
الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين } الآية فبعث النبي صلى الله عليه
وسلم فبشره وقد روي هذا الأثر مرسل عن مسروق وعن عكرمة وعامر الشعبي وقتادة وعن الربيع
بن أنس وهو من أحسنها سندا قال ابن جرير : حدثنا المثنى حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن
الربيع قوله : { ومن يطع الله والرسول } الآية وقال : إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
قالوا : قد علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن
اتبعه وصدقه وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضا فأُنزل الله في ذلك يعني
هذه الآية فقال : يعني رسول الله [إن الأعلى ينحدرون إلى من هو أسفل منهم فيجتمعون في
رياض فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما
يشتهون وما يدعون به فهم في روضة يحبرون ويتنعمون فيه] وقد روي مرفوعا من وجه آخر
فقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن
أسيد حدثنا عبد الله بن عمران حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة
قالت : جاء رجل إلى النبي A فقال : يا رسول الله إنك لأحب إلي من نفسي وأحب إلي من أهلي
وأحب إلي من ولدي وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت
موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك
فلم يرد عليه النبي A حتى نزلت عليه { ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله
عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا } وهكذا رواه الحافظ
أبو عبد الله المقدسي في كتابه في صفة الجنة من طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بن مسلم

الخلال عن عبد ا [بن عمران العابدي به ثم قال : لا أرى بإسناده بأسا و] أعلم وقال ابن مردويه أيضا : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي حدثنا أبو بكر بن ثابت ابن عباس المصري حدثنا خالد بن عبد ا [عن عطاء بن السائب عن عامر الشعبي عن ابن عباس : أن رجلا أتى النبي A فقال : يا رسول ا [إني لأحبك حتى إني لأذكرك في المنزل فيشق ذلك علي وأحب أن أكون معك في الدرجة فلم يرد عليه النبي A شيئا فأنزل ا [D هذه الآية وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد عن جرير عن عطاء عن الشعبي مرسلًا وثبت في صحيح مسلم من حديث هقل بن زياد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال : كنت أبيت عند النبي A فأتيته بوضوءه وحاجته فقال لي [سل] فقلت : يا رسول ا [أسألك مرافقتك في الجنة فقال : [أو غير ذلك ؟] قلت : هو ذاك قال : [فأعني على نفسك بكثرة السجود] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق أخبرنا ابن لهيعة عن عبيد ا [بن أبي جعفر عن عيسى بن طلحة عن عمرو بن مرة الجهني قال : جاء رجل إلى النبي A فقال : يا رسول ا [شهدت أن لا إله إلا ا [وأنتك رسول ا [وصليت الخمس وأديت زكاة مالي وصمت شهر رمضان فقال رسول ا [A : [من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة وهكذا - ونصب أصبعيه - ما لم يعق والديه] تفرد به أحمد قال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو سعيد مولى أبي هاشم حدثنا ابن لهيعة عن زيان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول ا [A قال : [من قرأ ألف آية في سبيل ا [كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا إن شاء ا [] وروى الترمذي من طريق سفيان الثوري عن أبي حمزة عن الحسن البصري عن أبي سعيد قال : قال رسول ا [A : [التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء] ثم قال : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأبو حمزة اسمه عبد ا [بن جابر شيخ بصري وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول ا [A سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال : [المرء مع من أحب] قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث وفي رواية عن أنس أنه قال : إني لأحب رسول ا [A وأحب أبا بكر وعمر B هما وأرجو أن ا [يبعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم قال الإمام مالك بن أنس عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول ا [A : [إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم] قالوا : يا رسول ا [تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال [بللى والذي نفسي بيده رجال آمنوا با [وصدقوا المرسلين] أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم ورواه الإمام أحمد حدثنا فزارة أخبرني فليح عن هلال يعني ابن علي عن عطاء عن أبي هريرة أن رسول ا [A قال :

[إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما تراءون - أو ترون - الكوكب الدري الغابر في الأفق الطالع في تفاضل الدرجات] قالوا : يا رسول الله أولئك النبيون ؟ قال : [بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين] قال الحافظ الضياء المقدسي : هذا الحديث على شرط البخاري والله أعلم .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا محمد بن عمار الموصلي حدثنا عفيف بن سالم عن أيوب عن عتبة عن عطاء عن ابن عمر قال : أتى رجل من الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : [سل واستفهم] فقال : يا رسول الله فضلت علينا بالصور والألوان والنبوة ثم قال : أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به إني لكائن معك في الجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [نعم والذي نفسي بيده إنه ليضئ بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام] ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من قال : لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله ومن قال : سبحان الله وبحمده كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة] فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يتغمده الله برحمته] ونزلت هذه الآيات { هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا } إلى قوله { وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا } فقال الحبشي : وإن عيني لتريان ما ترى عيناك في الجنة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [نعم] فاستبكي حتى فاضت نفسه قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليه في حفرة بيديه فيه غرابة ونكارة وسنده ضعيف ولهذا قال تعالى : { ذلك الفضل من الله } أي من عند الله برحمته وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم { وكفى بالله عليما } أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق